تمهيد

العصر والمجون والزهد

الأدب العربى - من نظم ونثر - فى عصوره الأدبية المختلفة ، ولاسيما فى العصر العباسى ، يمثل صورة صادقة لحالة العصر الاجتماعية والسياسية والفكرية . يصور العصر فى ثرائه وفى فقره ، ويصوره فى أمنه وفى قلقه ، ويصوره فى لهوه وفى جده ، ويصور - أيضا - الاتجاه الذى يجمع بين الجد والعبث ، أو الجد بعد العبث ، والتوبة بعد اقتراف الآثام .

والأدب يتأثر بما يدور حوله ، وتغذيه المتغيرات ، وتنميه المؤثرات ، وتحركه العوامل المختلفة التى خضع المجتمع لسيطرتها ، كما ينعكس سوء الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية على صفحات الأدب المعاصر لهذه المتغيرات .

ولقد تعاونت عوامل عديدة على انتشار التيار الماجن بين طبقات المجتمع فى الأعصر العباسية ، كما تعاونت عوامل أخرى على ازدهار تيار التوبة والزهد بين بعض فئات المجتمع العباسى . ولعل الافراط فى الجانب الأول كان من البواعث على ازدهار جانب الزهد والتوبة .

ويأتى دور الخلفاء فى مقدمة هذه الأدوار التى ساعدت على انتشار المجون ، أو على ازدهار التوبة ، فقد تدهورت أحوال الخلافة العباسية فى كثير من فتراتها ، وانغمس كثير من الخلفاء فى اللهو وفى الترف ، وفى الإقبال على اللذائذ ، والأخذ من المتع الحسية بنصيب ، فابتنوا القصور الشامخة ، واكتظت الدور بالقيان والجوارى ، واقتنوا الفاخر والثمين من مظاهر التحضر والترف .

وامتلأت مصادر التاريخ التى تصور تلك الفترة العباسية ، بالعديد من الأخبار التى تؤكد انغماس الخلفاء فى اللهو والترف ، فيروى المسعودى فى مروج الذهب ، أن المتوكل العباسى سأل شخصا حين أتم بناء قصره الجعفرى قائلا : « كيف قولك فى دارنا هذه ؟ فأجابه بقوله : أن الناس بنوا الدور فى الدنيا ، وأنت بنيت الدنيا فى دارك »[1] .

---

(١) المسعودى : (أبو الحسن على بن الحسين بن على المسعودى) - مروج الذهب ومعادن الجوهر . تحقيق : يوسف أسعد داغر . ط . دار الأندلس للطباعة والنشر - بيروت - الطبعة الثانية (١٩٧٣) جـ ٤ . ص ١٤٧ .

وعن الخليفة المعتضد ، يقول المسعودى - أيضا - فى مروج الذهب « لم تكن له رغبة إلا فى الفساد والبغاء ، أنفق على قصره المعروف بالثريا أربعمائة ألف دينار »[٢] .

ويصف ابن تغرى بردى فى النجوم الزاهرة ، قصر الخليفة المقتدر فى قوله « فقد كان فى قصره أحد عشر ألف غلام خصى من الروم وغيرها ، وقد أتلف من الأموال ثمانية ملايين من الدنانير »[٣] .

ولقد سيطر بعض النساء على الحكم ، فى بعض فترات التاريخ العباسى ، بطريق مباشر أو غير مباشر ، فكان مما زاد انتشار الفساد غلبة النساء على الحكم ، ويروى الطبرى فى تاريخه « أن الخليفة المستعين بالله مات وفى خزائن الدولة نحو نصف مليون دينار ، على حين كان فى خزائن أمه مليون دينار كاملة »[٤] كذا أم المعتز ، وأم المقتدر ، وغيرهن من أمهات الخلفاء فى ذلك العصر ، فقد كثرت الأخبار المثبتة ، فى مصادر التاريخ ، التى تؤكد ترفهن ، ومغالاتهن فى الأخذ بأساليب اللهو والتحضر .

ومن الخلفاء من تشدد فى أمور الدين ، وأمر بالمعروف ، وضرب بشدة على أيدى المنحرفين ، ومن هؤلاء الخلفاء المهدى العباسى ، ومنهم من لم يبالغ فى لهوه ، وأخذ ببعض أسباب الهداية ، مثل الهادى فقد (كان صاحب شراب ومجون ، الا أنه جد فى طلب الزنادقة)[٥] وكان للرشيد ما يعرف بمضحك الملك ، « ولكنه كان يستمع إلى نصح الوعاظ والمصلحين »[٦] .

ولم يكن خلفاء بنى العباس ، أول من أسهموا فى الأخذ بأساليب اللهو ، بل سبقهم فى ذلك الوليد بن يزيد فى العصر الأموى ، فلم يكد يبلغ القرن الأول الهجرى غايته ، حتى عرف تيار اللهو والمجون طريقه فى حياة الجماعة ، وكان لشخصية الوليد بن يزيد كبير الأثر فى انتشار تيار اللهو والمجون « فقد أمعن فى التحلل لما يفرضه الدين من قيود شرعية ، وأباح الحرية الاجتماعية التى تهدد القيم الخلقية وجاهر بلذاته »[٧] .

---

(٢) المسعودى . مروج الذهب . جـ ٤ ص ١٤٥ .

(٣) ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى) - النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة - نشر وزارة الثقافة والارشاد - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة . جـ ٣ ص ٢٣٤ .

(٤) تاريخ الطبرى - تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم . ط . دار المعارف - مصر . جـ ٩ . ص ٢٨٤ .

(٥) الطبرى - تاريخ الطبرى - جـ ١٠ . ص ١١٣ .

(٦) المرجع السابق . جـ ١٠ . ص ١١٣ .

(٧) د. طه حسين - حديث الأربعاء . دار المعارف - مصر - الطبعة الحادية عشرة جـ ٢ . ص ١٦٠ .

ومن قبله كان يزيد بن معاوية ، الذى يروى المسعودى عنه « أنه كان صاحب طرب وجوارح وكلاب وقرود وفهود ومنادمة على الشراب »[٨] ، وفى عصره انتشر الغناء بمكة والمدينة . ويروى ابن عبد ربه عنه فى العقد الفريد أنه « كان يقبل على الخمر إقبال النهم حتى كان يسمى يزيد الخمور »[٩] .

وتزداد حدة الفساد والأخذ بوسائل اللهو فى عصر المقتدر العباسى ، ويصور د. شوقى ضيف حالة عصر المقتدر حين يقول « وكأننا لم نعد بإزاء دولة تحكم بقوانين الشريعة الإسلامية ، وإنما أصبحنا بإزاء لصوص ومختلسين وقطاع طرق ، وما أن يجثم عصر المقتدر على صدر الأمة ، حتى يفسد الحكم فسادًا لا حد له »[١٠] .

ومن المتغيرات التى طرأت على المجتمع العربى فى العصر العباسى ، وكان لها أثر فى تشكيل صورة المجتمع بملامح خاصة ، الفتوحات المتتالية ، وتأثيرها فى امتزاج العرب بأجناس أخرى ، فقد تعرف العرب على بيئات مختلفة ، فى الطبيعة والحضارة والعرف ، ودخلت الأرض العربية ، أجناس مختلفة ، غزت الجزيرة بدمائها وأهوائها ، وامتزجت بالمجتمع امتزاجا جذريا ، وأثرت فيه تأثيرات جوهرية .

وقد تنبه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، إلى أثر هذه الفتوحات فى المجتمع العربى ، فيروى الطبرى ، فى تاريخه ، « أن عمر بن الخطاب حرم على العرب ، أن يمتلكوا ضياعا فى الأقاليم المفتوحة ، أو أن يتخذوها موطنا ومقاما ، كما جعلهم بمعزل عن المدن الكبيرة فى البلدان المفتوحة »[١١] .

ويعرف العرب الملكيات الواسعة فى العراق ، فى عهد عثمان بن عفان ، فتضخمت الثروات ، واتسعت الإقطاعات « التى قام عليها العاملون من الرقيق والموالى ، وطبقة البائسين الذين يعملون فى الأرض »[١٢] .

وقامت ثورات كبرى استنفدت موارد الدولة ، مثل ثورة الزنج ، وثورة القرامطة ، وقد أثقلت هذه الثورات بخسائرها الباهظة ، الدولة العباسية .

ونتيجة لاتساع الدولة ، وزيادة الهجرة إليها ، انتشر الجوارى والقيان ، وكثرت المتاجرة بالرقيق والإماء ، وتفشت بعض الآفات الخلقية نتيجة لانعدام التوازن الاجتماعى ، واهتزاز

---

(٨) المسعودى - مروج الذهب - جـ ٤ ص ٧٤ .

(٩) ابن عبد ربه (أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسى) - العقد الفريد - تحقيق : أحمد أمين وآخرين . ط . مصر - لجنة التأليف والترجمة والنشر - ١٩٤٠ . جـ ٦ ص ٣٤٨ .

(١٠) د. شوقى ضيف . العصر العباسى الثانى . الطبعة الثالثة - دار المعارف - ١٩٧٧ . ص ٢٢ .

(١١) تاريخ الطبرى . جـ ١ ص ٢٧٣ .

(١٢) د. طه حسين . الفتنة الكبرى . دار المعارف مصر ص ١٠٣ .

المعيار الخلقى ، ففشاحب الغلمان ، وجاهر شعراء كثيرون بالغزل بالمذكر ، ومنهم أبو نواس وتبعه أبو تمام والبحترى والصنوبرى وكشاجم ، وغيرهم .

وتاجر القيان بالعشق ، وروجن للفسق ، ووقع كثير من الشعراء فى حبائلهن .

وانتشرت تجارة القيان فى العصر العباسى ، وكان يقوم عليها المقين ،وفى رسائل الجاحظ ، تفسير لتلك التجارة الآثمة ، وتحليل لأخلاقيات المقينين ، فالمقين : « يقصد بالرغبة ، كما يقصد الخلفاء والعظماء ، ولا يكلف الزيارة ، ويوصل ولا يحمل على الصلة ، ويهدى له ولا تقتضى منه الهدية »[١٣] .

وكان الكرخ مليئا بالحانات ، ودور النخاسين ، تجار القيان ، والشعراء الخلعاء ، والمجان يغدون ويروحون .

ومن بيوت القيان بيت ابن رامين ، وبيت أبى عوف ، وأبى عمير النخاس[١٤] ، وبيت حرب ابن عمرو الثقفى ، وحسنويه ، والأصبغ ابن سنان ، وسيرين بن طرفان النخاس ، والجنيد النخاس ، وأبو الخطاب النخاس ، وغيرهم[١٥] .

ويروى أبو الفرج الأصفهانى فى الأغانى ، أن بعض الشعراء قد ارتبط بالزواج من بعض هؤلاء الجاريات الماجنات ، ومنهن امرأة الشاعر عمار ذى كناز ، دومة بنت رباح فقد تخلقت بخلقه فى شرب الشراب والمجون والسفه ، حتى صارت تدخل الرجال عليها وتجمعهم على الفواحش ، والجارية دقاق أم ولد يحيى بن الربيع ، مغنية حسنة مشهورة بالظرف والمجون ، تواصل جماعة يميلون إليها وترى كل واحد منهم أنها تهواه »[١٦] .

ويصحو بعض الشعراء من غفوتهم ، وينصحون غيرهم ، حتى لا يصيبهم ما أصابهم ، من غش الجاريات ، وخداعهن ، فيقول أحد الشعراء فى الموشى[١٧] .

صحوت فأبصرت الغواية من رشدى ... وأيقنت أنى كنت جُرتُ عن القصد
فلا يعشقن من كان يعشق قينة ... فما هو منها فى سعيد ولا سعد
فقولا لمن يهوى القيان تفهموا ... مقالى ، فأنى قد نصحت لكم جهدى

---

(١٣) الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر بن محجوب) – رسائل الجاحظ . تحقيق : عبدالسلام محمد هارون . جزءان . ط . مكتبة الخانجى – مصر – ١٩٦٥ . جـ ٢ ص ٣٧٩ .

(١٤) الأصفهانى (أبو الفرج) – الأغانى – نشر الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧٠ . ط ١ ص ٣٦٤ .

(١٥) الأصفهانى – الأغانى ط ٢ ص ١١٤ .

(١٦) الأصفهانى – الأغانى جـ ٢٠ ص ١٧٧ .

(١٧) الوشاء (أبو الطيب محمد بن اسحاق بن يحيى الوشاء) – الموشى – عالم الكتب – بيروت ١٩٨٣ ص ١٣ .

وتمثل البصرة والكوفة المجتمع العباسى فى ذلك العصر أصدق تمثيل ، تمثل بيئة واحدة ، تجمع بين الضدين ، وتجمع بين المتناقضين ، ففيها تيار المجون العابث ، وفيها تيار الزهد الصادق ، وصورت البصرة النقلة الاجتماعية التى لحقت بالمجتمع العباسى ، فنقلته من البداوة إلى التحضر ، فى كثير من الجوانب الاجتماعية ، ولكنها لم تفلح فى إخفاء الصورة الأصلية تماما ، بل حافظت عليها جنبا إلى جنب مع صورة الترف والمجون ، « فجمعت البصرة بين الخشونة الزاهدة الصلبة القاسية ، وبين الترف الناعم الهائم ، ففيها ازدواج متوتر عنيف ، ومزيج بين طرفين متباعدين ، ففى كل روح تسكن طبيعتان : إحداهما تتلمس غذاءها من قوت الحواس ، والأخرى تستشرف إلى قوت القلوب »[١٨] .

وفى أشعار شعراء البصرة ، تصوير لمجتمعهم ، الذى يحتفل بكل متضاد ، ومتناقض بين أسباب الحياة ، ومنهم الشاعر محمد بن يسير ، فقد عاش حياته لم يغادر البصرة ، فأنعكست صورتها على شخصيته الفنية ، وبرزت تناقضاتها فى شعره ، فقد عرف عنه الخلاعة والسكر والاستهتار ، وكان ماجنا مستهترا وزاهدا حكيما ، إنه جامع الضدين ، بدأ حياته ماجنا ، وانتهى زاهدا ، مثل غيره من شعراء المجون الذين زهدوا وفى الأغانى أن ابنه قال عنه « كان أبى مشغوفا بالنبيذ ، مشتهرا بالشراب ، ما بات قط إلا وهو سكران »[١٩] .

ويصف ابن يسير نفسه فى حالة سكره ، فيقول[٢٠] .

خـرجت من عندهم مثخنـا يـدفعنى الجـدر إلى الجـدر
مقبـح المشى كسـير الخـطا تقصر عند الجد عن سيرى

وفى بعض شعر بشار تصوير لمجتمع البصرة ، الذى جمع بين النقيضين ، وقد جمع بشار فى شعره بين العبث والحكمة ، وفى بعض شعره حث على الفساد ، ودعوة إلى الملذات غير المشروعة ، مثلما جاء فى قوله[٢١] .

قالوا: حرام تلاقينا فقلت لهم: ما فى التلاقى ولا فى قبلة حرج

فقد عبر فى بعض أشعاره عن الجانب العابث فى المجتمع ، حيث اختلاط الأجناس ، وضياع القيم ، وحيث الشعراء أمثاله من المُجّان ، يتوافدون على دور القيان ، ومنهم حماد

---

(١٨) د. عبدالرحمن بدوى - شهيدة العشق الآلهى - وكالة المطبوعات الكويتية - الطبعة الرابعة ١٩٧٨ ص ٨ .

(١٩) الأصفهانى - الأغانى جـ ١٤ ص ٤٩ .

(٢٠) المرجع السابق . جـ ١٤ . ص ٤٩ .

(٢١) ديوان بشار بن برد . جمع وتحقيق محمد الطاهر بن عاشور نشر الشركة التونسية للتوزيع - الجزائر ١٩٧٦ م جـ ١ . ص ١٧٦ .

عجرد ، والشمقمق ، وسلم الخاسر ، ووالبة بن الحباب ، وأبى نواس ، وصالح بن عبدالقدوس ، وغيرهم .

ولم تكن الكوفة أقل نصيبا من البصرة ، فى انتشار الحانات ، ودور القيان ، « فهى وارثة الحيرة التى كانت عامرة بالحانات والأديرة »[٢٢] ، والمتأمل لمذاهب الكوفيين ، من غلاة الشيعة الذين حللوا المحرمات وسخروا بالدين ، يجيزون مذاهب يطبقها هؤلاء المجان من الشعراء تطبيقا لا يصطنعون فيه حيطة ولا حذرا »[٢٣] .

وقد كانت الكوفة مصدرا للمجون ، وبيئة للزنادقة من الشعراء المجان ، وقد شاركت بغداد هى الأخرى فى انتشار بيوت القيان والحانات والديارات ، خاصة فى تلك الفترة العباسية الأولى ، التى عاش فيها أبو نواس وجماعة الخلفاء ...

ويصور على بن الجهم تلك الحياة الماجنة ، فى جانب من جوانب المجتمع العباسى ، ويعرض للجارية ، وللقائم على أمرها ، ولطالب المتعة ، فيقول[٢٤] .

أوانس ما للضيف فيهن حشمة ... ولا ربهن بالجليل المبجّل
يُسَرُّ إذا ما الضيف قلّ حياؤهُ ... ويغفل عنه وهو غير مُغفل
ويكثر من ذم الوقار وأهله ... إذا الضيف لم يأنس ولم يتبذّل
لك البيت ما دامت هداياك جمّة ... وكنت مليّا بالنبيذ المعسل
فبادر بأيام الشباب فإنها ... تقضى وتفنى والغواية تنجلى
هل الدهر إلا ليلة طرحت بنا ... أواخرها فى يوم هو معجل

ومن العوامل التى أدت إلى تغير صورة المجتمع العربى فى العصر العباسى ، وأسهمت فى خلق صورة تختلف عما كان عليها ، عامل الشعوبية ، وامتزاج الحضارة العربية ، بالحضارة الفارسية ، مما ساعد على انتشار بعض المعايب والقبائح التى لم يكن يعرفها المجتمع قبل ذلك ، وتعد صدى للجانب المنحرف من الخلق الفارسى ، فقد فشت الشعوبية ، وأسرف أصحابها فى كراهية العرب ، والحملة عليهم ، والإسراف فى المجون ، والتصريح بالتحلل من الخلق الكريم ، والتحرر من كل قيد وقيمة ، والعبث بموروث العرب الخلقى ، ومجاهرة الشعراء ، بما يخالفون روح الإسلام ، والعرف العربى ، وتمجيد الخمر وإعلاء شأنها على غيرها مما يُقرِّبه العرب ويُقدسه ..

---

(٢٢) د. محمد مصطفى هدارة – اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى . ط . دار المعارف – مصر الطبعة الثالثة ص ٢٠٦ .

(٢٣) محمد جابر عبدالعال – حركات الشيعة المتطرفين – ص ٣٠٥ .

(٢٤) الأصفهانى – الأغانى جـ ١٠ ص ٢١٩ .

ولقد بالغ الشعراء المجان فى تصوير المجتمع العباسى ، وكأنه خلا من كل فضيلة ، وكأنه وصم بكل نقيصة ، وقد ظن بعضهم أن النساء كلهن ماجنات ، ولا عفيفة بينهن ، ففى الأغانى « أن مطيع بن إياس مر ببحيى بن زياد وحماد الراوية ، وهما يتحدثان ، فسألهما عما يتحدثان ، فأجابا فى قذف المحصنات ، فقال : أوفى الأرض محصنة تقذفانها ؟

ومن شعره :

وصل القبيح مجاهرا فالعيش فى وصل القيان

ويرمى بشار النساء جميعا بالفحش ، فيقول :

عسر النساء إلى مياسرة والصعب يمكن بعد ما جمحا[٢٥]

ويرجع هذا الإنغماس فى اللهو والعبث إلى « تحلل فى الأخلاق ، والتخفف منها ، ومن أعبائها الثقيلة ، وساعد على ذلك اختلال فى الموازين ، وفساد فى القيم ، وكان الشك يتسلط على نفوس كثيرين فضلا عن موجتى الإلحاد والزندقة »[٢٦] .

وفى الجانب الآخر للمجتمع العباسى ، ينتشر الزهد ، فكانت المساجد والمكتبات العامة ، والربط والزوايا ، ومجالس الحسن البصرى ، وتضرعات المتهجدين القانتين ، وهناك العابدون يستلهمون التقوى ، ويعزفون عن الدنيا ومتاعها .

وقد عرف آدم بن عبدالعزيز بالمجون فى شبابه ، ولكنه عرف بالزهد فى أواخر حياته ، حتى عد من الداعين إلى شعر التصوف وإلى مناجاة الذات الإلهية ، مناجاة الحب والعشق والهيام . كما ظهر شعر الزهد والتوبة فى أشعار أبى العتاهية ، ومحمود الوراق ، وصالح ابن عبدالقدوس ، ومحمد بن أبى كناسة ، وابن طوق العنبرى ، كما أمتد ذلك التيار ليشمل شعر أبى نواس وأبى تمام وابن المعتز وغيرهم .

لقد انتشر الزهد فى المجتمع العباسى كرد فعل طبيعى لتلك الحياة المتناقضة بين الثراء والفقر ، ولتلك الحياة الموغلة فى الخلاعة والمجون ، وكما أسهمت المرأة فى انتشار تيار المجون ، فقد أسهمت المرأة – أيضا – فى تنشيط حركة الزهد ، فانقطعت إلى عبادة الله ، وتصوفت ، لتعلن سخطها على ما يدور فى الحياة الاجتماعية فى العصر العباسى من لهو ، « وقد رفضت الزاهدات متاع الدنيا ، وما فيها من آثام ومجون ، وعرفت شظف العيش وتقوى الله واستمعن إلى الوعاظ وإلى القصاص الذين يقصون سير الأنبياء والصالحين[٢٧] ويحصى الجاحظ عددا

---

(٢٥) الأصفهانى – الأغانى جـ ٢٠ ص ١٧٥ .

(٢٦) د. شوقى ضيف – العصر العباسى الثانى . ص ٤٥٨ .

(٢٧) د. على إبراهيم أبو زيد – صورة المرأة فى الشعر العباسى – دار المعرف – مصر الطبعة الأولى ١٩٨٣ ص ٢٤ .

لا بأس به من النساء الزاهدات فى ذلك العصر ، أمثال « رابعة العدوية » وأم الدرداء ، ومعاذة العدوية ،ورابعة القيسية ، والشيباء ، وحمادة الصفرية ، وغزالة الشيبانية ، والميلاء وحميدة وليلى الناعطية »[٢٨] ومن الشاعرات الزاهدات فى ذلك العصر أيضًا - ريحانه الزاهدة ، وميمونة الزاهدة المتصوفة ، وآسية البغدادية ، وآمنة الرملية .

فقد جمع المجتمع العباسى بين المجون والزهد ، وقام الشعراء بتصوير الحالتين ، بعد أن أسهموا فى التيارين ، ويجدر بالبحث أن يتعرض فى إيجاز للمجون فى العصر العباسى ، وللزهد أيضًا ،قبل أن يتناول المؤثرات التى أثرت فى مجون المجان ، وأدت بهم إلى التوبة والإقلاع عن المجون ، وإعلان الزهد والاستغفار عن ذنوبهم .

المجـــون :

المجون لغة من مجنت الأرض مجونًا ، إذا صلبت وغلظت[٢٩] ، وهو خلط الجد بالهزل ، وصلابة الوجه ، وقلة الاستحياء ،وعدم مبالاة الانسان بما يصنع أو يقول ، والماجن هو الذى يرتكب المقابح المردية ، والفضائح المخزية ، ولا يمنعه عذل عاذل ، ولا تقريع من يقرعه ، ويشيع عندما يستبحر العمران ، وترق الحضارة ، وتقل ضوابط الجد فى المجتمع ، ويستريح الناس ملوكًا وسوقة إلى الدعة والترف ، والاستمتاع بمباهج الحياة .

والمجون « ارتكاب الأعمال المخلة بالآداب العامة ، والعرف والتقاليد دون تستر أو إستحياء »[٣٠] .

ومن المجون شعر الغزل الفاحش ، والغلاميات ، والخمريات ، والزندقة ، ومن شعر المجون ما يكون جدا مشوبا بالهزل ، وما يكون هزلاً صرفًا لا جد فيه ، وما يكون سخرية تثير الضحك ،وما يكون تهكمًا بغير المتوقع ، وما يعتمد على التناقض والضعف وما يستند على السخرية من العرف والتقليد ، وما يثير ضحك الآخرين والاستهزاء بهم ، مما يدخل به فى إطار الهجاء الساخر الذى لا يرعى حرمة ولا دين ، ولا كرامة إنسان .

ويرتبط المجون فى بعض جوانبه بالزندقة ، ويرتبط بالشعوبية ، وبالظرف وبالتفكه ، وتختلف درجات الشعراء فى مراتب المجون ، حسب تفاوتهم فى الأخذ بأساليبه ، وحسب إسهامهم فى التعبير عن جانب من جوانبه . أو الجمع بين عدة جوانب - أحيانًا - كالجمع بين

---

(٢٨) الجاحظ . الحيوان . ت . عبدالسلام محمد هارون - الطبعة الثانية - عيسى الحلبى جـ ٥ . ص ١٩٨ .

(٢٩) لسان العرب - ابن منظور - مادة مجن .

(٣٠) د. محمد مصطفى هدارة - اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى . ص ٢٠٤ .

الغلاميات والخمريات ، أو بين الشعوبية والزندقة ، أو بين التفكه والظُرف ، والاستخفاف بالآخرين ، والاستهزاء بقيمهم ..

وللمجون وسائله المختلفة عند الشعراء ، وله حيلة ونوادره ،وعباراته وأساليبه ، وله صوره الهزلية الساخرة . ولعل أخف درجاته هى التفكه والسخرية ، فهى تدخل فى باب المجون ، ولا يشعر صاحبها بالعار أو الخوف ، ولا يخشى نظرة المجتمع إليه ، بل قد يكون محبوبًا ، متطلعًا إلى مجالسته ، وإلى الاستمتاع بأحاديثه .

ويضع أبو الطيب الوشاء فى وصفه الظرف والظرفاء ،أسسًا وقواعد لمجون الظرفاء فيقول :« واعلم أن عماد الظرف عند الظرفاء وأهل المعرفة والأدباء ، حفظ الجوار ، والوفاء بالذمار ، والأنفة من العار ، وطلب السلامة من الأوزار ، ولن يكون الظريف ظريفًا ، حتى تجتمع فيه خصال أربعة : الفصاحة والبلاغة والعفة والنزاهة »[٣١] .

ويرى الوشاء فى المُجّان ظرفًا وعفة ونزاهة ، ويختار من كلماتهم البعيد عن الفجر وعن الفحش ، وينتقى أحاديث وأقوال للظرفاء تجعل درجة المجون عندهم أخف درجاته ، وأقل خطرًا على المجتمع ، وأضعفها عملاً على إفشاء الفساد فيه ، فيجعل من شيمة الظرفاء « التودد إلى الأخوان ، وكف الأذى عن الجيران ، ونقاء النفس ، وسخاء الكف »[٣٢] .

ويجعل الوشاء الظرف فى اللسان ، وللتفكه فى القول ، والاتيان بالطريف والنادر ، فلا يكون الظرف إلا فى اللسان ، فيقال فلان ظريف ، أى هو بليغ جيد المنطق ، والظريف هو الذى تأدب وأخذ من كل العلوم فصار وعاء لها فهو ظرف ، ومن كان فصيحًا عفيفًا ، كان متكاملاً ظريفًا ، ومن كان غنيًا عاهرًا ، كان ناقصًا فاجرا »[٣٣] .

ويجمع أحد الشعراء خصال الظرفاء فى أربع خصال هى : الحياء والكرم والعفة والورع . وينسب الشعر لأبى عبد الله الواسطى[٣٤] .

ليس الظريف بكامل فى ظرفه ... حتى يكون عن الحرام عفيفا
فإذا تورع عن محارم ربه ... فهناك يدعوه الأنام ظريفا

ومثله لبعض المتأدبين[٣٥] .

إن أكن طامح اللحاظ فإنى ... والذى يملك العباد عفيفا
ليس طرف الظريف بالنفس لكن ... كل ذى عفة فذاك طريف

---

(٣١) الوشاء (أبو الطيب محمد بن اسحاق بن يحيى الوَشّاء) - الظرف والظرفاء - عالم الكتب - بيروت - الطبعة الثالثة - ١٩٨٣ ص ٣٢ .
(٣٢) المرجع السابق - ص ٣٢ .
(٣٣) المرجع السابق - ص ٣٣ .
(٣٤) المرجع السابق - ص ٣٣ .
(٣٥) المرجع السابق - ص ٣٣ .

وينشد الوشاء لأبي عبد الله الواسطي أيضًا قوله[٣٦] .

كم قد ظفرت بمن أهوى فيمنعني منه الحياء وخوف الله والحذر
وكم خلوت بمن أهوى فيقنعني منه الفكاهة والتحديث والنظر

والظرف من أرق جوانب المجون ، وأقربها إلى النفس ، والمجون فيها يكمن فى بعد القول عن الكلمة الجادة ، وعن الالتزام ، وربما يطغى الظرف على الجوانب الجادة الأخرى فى شخصية صاحبه ، وهدفه إثارة الضحك ، ويتسم بالعفة والتورع عن محارم دينه ، فلا يكون الهزل فى غير اللسان ، وفى القول ، لا فى العمل والسلوك والاعتقاد ، والماجن الظريف ، أو الظريف الماجن يعرف بالإضافة إلى ظرف اللسان ، بخفة الروح ، وقوة البديهة ، ونبوغ القريحة ، والتقاط معايب المجتمع ، ونقائص الأفراد فى خفة ورشاقة ، وفى سرعة وذكاء ، وهو أقدر من غيره على رؤية الجانب الساخر ،وربما يرمى - أحيانًا - إلى التشفى من المجتمع الذى ربما يكون قد أوقع به ظلمًا ، وأضاع له حقا . « وربما يكون الدافع محاولة الشاعر لفت النظر إليه ، واستمالة قلوب ذوى العطاء ، وهو يحتل منزلة النديم والسمير عند الملوك والعظماء »[٣٧] .

وقد يشترك الظرف والتفكه مع ألوان أخرى من المجون ، تختلف فى حدتها وخطورتها ، وقد يكون الظرف عاملاً مشتركًا فى مجالس المجان والخلعاء والشذاذ ، حين تلعب الخمر بالرءوس ، فيزداد التفكه والاستخفاف بالأشياء ، والاستهزاء بالقيمة والإنسان .

وإذا كان الظرف أخف درجات المجون ، فإن الزندقة تعد أخطر تلك الدرجات وأشدها حدة ، وقديكون هناك رابط خفى بين طرفى المجون التفكه والزندقة ، حين يدافع البعض عن أقوال الزنادقة من الشعراء ، بأنهم كانوا يقولون ما لا يؤمنون به ، على سبيل التفكه والدعابة . ومن هؤلاء الشعراء الذين اتهموا بالزندقة بشار وحماد عجرد وأبان اللاحقى ، ويقول عنهم د . عبد الرحمن بدوى « أنهم لم يكونوا زنادقة بالمعنى الصحيح ولكنهم اتفقوا جميعًا فى غلبة روح الاستخفاف والعبث فيهم ، وأن أبا نواس كان صادقًا فى تسميتهم بعصابة المجان ، فهم أقرب إلى الشك والمجون من الإيمان والجد ، وهم أولى باسم الشكاك العابثين منهم باسم الزنادقة الملحدين »[٣٨] .

والزندقة أخطر درجات المجون وأقساها ، والمجون أول درجات الزندقة كما يرى د .

---

(٣٦) المرجع السابق - ص ٣٤ .

(٣٧) (د. عبدالعزيز عتيق . الأدب العربى فى الأندلس - دار النهضة العربية - بيروت ١٩٧٦ . ص ٢٥٥ .

(٣٨) د. عبدالرحمن بدوى . تاريخ الإلحاد فى الإسلام . ص ٢٨ .

هدارة « إذ أنه يدعو إلى التحلل الأخلاقى ، ونبذ التقاليد والآداب المرعية بدعوى الحرية الفكرية »[٣٩] .

ومما لا شك فيه ، فإن العوامل التى هيأت لانتشار المجون ، هى المسئولة الأولى عن انتشار تيار الزندقة عند بعض الشعراء ، منها ظروف المجتمع والترف الذى عاشه ، والتحلل من القيود ، والتحرر من القيم ، واختلاط الثقافات ، وامتزاج الأجناس ، والحرية العقلية والفكرية ، وما أصاب الأنشطة الفكرية من حوار وجدل ، وما دخل إلى العرب من ثقافات أجنبية مختلفة ، تحمل آراء حرة وخطيرة ، آمن بها بعض الشعراء ، ورددها بعضهم ترديدًا ، وأعتقد الآخرون فيها ، فدعا إليها فى بعض أشعاره .

لقد جاءت الزندقة نتيجة دعاوى الغلاة الإباحيين ،الذين هيأوا لانتشار مثل هذه الآراء الجريئة ، وكان للثقافة اليونانية وانتشارها ، تأثير فى انتشار ما عرفوه بنزعة التنوير « التى تقوم على أساس تمجيد العقل وعبادته ، وعلى فكرة التقدم المستمر للإنسانية الخالصة فى مقابل القيم الإلهية والنبوية »[٤٠] .

والثقافة الفارسية مسئولة هى الأخرى عن انتشار تيار الزندقة فى المجتمع العباسى ، وتأثيرها لا يقل عن تأثير الثقافة اليونانية وإن زاد عنها ، فلقد أسهمت العناصر الفارسية ، وأسهم الموالى والرقيق المجلوب ، فى إفشاء تيار الزندقة فى المجتمع العربى .

وقد أسهمت الظروف السياسية فى عصر بنى أمية ، على أن يفرغ الناس لأنفسهم ، يتحاورون ويتجادلون ويعتقدون ، ويلحدون ، فقد انصرفوا عن العمل بالسياسة ، وعن الاهتمام بالحكم والحكام ، إلى علوم الكلام والفلسفات الأجنبية المختلفة .

والزنادقة يكرهون الدين وأصحابه ، ويتفقون مع أنصار الشعوبية فى تقويض أركانه ، فالشعوبية تهدف إلى تحطيم كل ماهو عربى ، وتقويض معنويات المسلمين ، حتى يدنسوا دين العرب ، فالشعوبية والزندقة يرتبط أحدهما بالآخر إرتباطًا فكريًا وثيقًا ، وكلاهما يهدف إلى السخط على العرب ، وعلى دين العرب ، وعلى أفكارهم وأخلاقياتهم ، وكلاهما يقتدى بحياة الفرس ، ويمجد حضارتهم ، وكلاهما حاول جاهدًا أن يدس ما يدنس الدين العربى ، احتقارًا للعروبة وإعجابًا بالأصول الفارسية ، ويذكر الطبرى فى تاريخه أن عبد الكريم بن أبى العوجاء ، لما أيقن أنه مقتول قال « لقد وضعت أربعة آلاف حديث ، أحرم فيها الحلال ،وأحل فيها الحرام »[٤١] .

---

(٣٩) د. محمد مصطفى هدارة – اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى – ص ٢٠٧ .

(٤٠) د. محمد مصطفى هدارة – المرجع السابق – ص ٢٠٦ .

(٤١) تاريخ الطبرى . جـ ٦ ص ٢٣٢ .

إن هذه الزندقة ، وهذا العبث والمجون الفكرى والعقلى ، « إنما حملت كلها من العراق إلى الشام بأمر الوليد بن يزيد ، أو بغير الوليد بن يزيد من مُجّان بنى أمية . كما يرى د . طه حسين فى حديث الأربعاء »[٤٢] .

ويرى – أيضًا – أن هذا العبث عراقى « دعا إليه الموالى والرقيق من الفرس وأهل العراق »[٤٣] .

وتتنازع البصرة والكوفة بداية الزندقة والعمل على إحتضانها ، والعمل على ترويجها ، وتختلف الآراء حول أيهما كانت أسبق من الأخرى فى التعرف على هذا الوباء الفكرى ، فبينما يرى فون كريمر أن البصرة هى الموطن الأول لظهور نزعة عدم المبالاة بالدين ، لوجود عدد كبير من المسلمين من الفرس وغيرهم ، يرى د . هدارة أن إنعكاس تيار الزندقة والمجون فى شعر الكوفة أوضح من شعر البصرة ، ويرى د . طه حسين أنها كانت فى العراق ، وفى البصرة والكوفة معًا ، فالعراق موطنها ، وأواخر القرن الأول وبدايات القرن الثانى الهجرى مبدؤها ، فقد كانت « الزندقة الأدبية فى عصر بنى أمية ضعيفة مترددة مستترة ، لا يكاد الناس يظهرون الميل إليها ، فلما اجترأ خليفة من خلفاء بنى أمية على أن يجهر بالفجور قويت ، واستطاعت أن تظهر ، ثم انتصر الفرس ، فانتصرت معهم »[٤٤] .

ويرى د . هدارة أن الزندقة يقصد بها بادىء الأمر « أبرار المانوية وزهادهم ، ثم أصبحت علمًا على المانوية كلهم ، وتطور معناها بعد ذلك إلى ملحد ، وهى من أصل فارسى وعربت »[٤٥] .

وسواء أعتقد الشاعر ما يدعو إليه من زندقة فى شعره ، أو لم يعتقد به ، فإن خطورة الكلمة أقوى من السلوك الفردى الخاص ، فالكلمة الفاجرة تدعو مجاهرة إلى المعصية ، وترويج لإفساد العقيدة ، وتعمل على تقويضها ، وحين يسقط الزنديق فى قبضة العقاب ، يتنكر لقوله ، ويدعى أن زندقته من باب العبث والمجون – كقول آدم بن عبد العزيز حين اتهم بالزندقة « كنت فتى من فتيات قريش أشرب النبيذ ،وأقول ما قلت على سبيل المجون »[٤٦] .

وقد فعل بعض المجان فعلة آدم بن عبد العزيز ، أمثال أبان بن عبد الحميد وبشار وأبى نواس فى بعض أشعاره ،وكذلك كان أبان اللاحقى فلم يكن أقل منهم عبثًا أو استهتارًا ، ولعل ضميره كان أقبح من ضمائرهم« ولعله كان من أولئك الزنادقة الذين كانوا زنادقة حقًا ،

---

(٤٢) د. طه حسين – حديث الأربعاء – جـ ٢ ص ١٦٠ .
(٤٣) د. طه حسين – المرجع السابق – جـ ٢ ص ١٦١ .
(٤٤) د. طه حسين – المرجع السابق – جـ ٢ ص ١٦١ .
(٤٥) د. هدارة – اتجاهات الشعر العربى . ص ٢٢٢ .
(٤٦) الأغانى – جـ ١٤ ص ٥٩ .

والذين كانوا يكفرون عن يقين ،وكانوا يظهرون الإسلام ،ويتكلفونه ، ولأبان قصيدة طويلة عن الصوم والزكاة أولها :

هذا كتاب الصوم وهو جامع لكل ما قامت به الشرائع

« إن أساس المجون ليس ارتكابه ، إنما المجاهرة به ، وليس ضروريًا لمن يريد أن يحل مُحَرمًا أن يجهر به ، إلا إذا كان يقصد به ، من وراء مجاهرته الدعوة إلى مذهبه »[٤٧] .

وظل الشعراء الزنادقة ، يروجون لمبادئها فى أشعارهم ، ويدعون إلى التحرر من الإسلام وشرائعه ، ويدعون مجاهرة إلى إرتكاب الفواحش ، وإلى نبذ الأخلاق ، فى جرأة لا تعرف إحتشامًا ، وصراحة لا تعرف مواربة أو تستر ، فى أسلوب لا يعرف الرمز أو التلميح .

وهذا الشاعر الأقيشر يدعو إلى ترك الصلاة ،وهذا أبو دلامة يسخر من الصوم ،ويجاهر بترك الصلاة . ويتهكم بالمصلين ويسخر منهم ، وفى الأغانى يروى أبو الفرج خبرًا عن أبى دلامة ،يؤكد فيه أنه « كان فاسد الدين ، ردىء المذهب ، مرتكبًا للمحارم ، مضيعًا للفروض ، مجاهرًا بذلك »[٤٨] .

وفى الحديث عن أبى دلامة فى دائرة المعارف الإسلامية روى عنه « أنه كان يتمتع بحرية الندماء ، التى تحررهم بعض الشىء من قيود الشريعة الإسلامية ، بل التى تبيح لهم أن يجعلوا منها هدفًا لأضاحيكهم »[٤٩] .

ولقد جاهر الوليد بن يزيد من قبلهم باللذة ، وتفاخر بارتكاب المحرمات ، وقد سلك هذا المسلك طائفة من الشعراء عرفوا بعصابة المجان ، اشتملت على أبان اللاحقى والحسين بن الضحاك ، ودعبل الخزاعى ، ومسلم بن الوليد ، ووالبة بن الحباب ، ومحمد بن رياح ، وداود ابن رُزَيْن الواسطى ، وفضل الرقاشى ، وأبو الشمقمق ، وإسماعيل القراطيسى ، وحماد عجرد ، ومطيع بن إياس ، وغيرهم من الشعراء .

وقد تفننوا فى مجالس لهوهم ، فى الأخذ بأساليب العبث الفاحش ، حيث كانت مجالسهم تحتوى على كل ألوان الرذائل وأخبثها ، عابثين بالعرف وبالقيم ، ويرتكبون رذائلهم فى أوقات الصلاة عمدًا ، ويسخرون ممن يدعوهم إلى الدين أو الحفاظ عليه .

ومن الطبيعى أن ترتبط الزندقة بالدعوة إلى الشعوبية ، والشعوبية من مصادر المجون ، ومن دوافعه ، فقد حدت ببعض الشعراء إلى أن يسهموا فى افشاء تيار المجون فى العصر العباسى .

---

(٤٧) د. محمد مصطفى هدارة . اتجاهات الشعر العربى ص ٢١٦ .

(٤٨) الأغانى - جـ ١٠ ص ٢٤٨ .

(٤٩) دائرة المعرف الإسلامية ص ٢٤٨ .

والعلاقة وطيدة بين الشعوبية والدعوة إلى الزندقة ، وقد يبرهن على ذلك ، أن زعامة المجون كانت للموالى ولغير العرب ، وكانت للمتعصبين ضد العرب ، وللحاقدين عليهم ، وللساخطين على حضارتهم .

ويعلل الجاحظ فى الحيوان ، العلاقة التى تربط بين الشعوبية والزندقة ، ويرى أن الشعوبية تؤدى إلى الزندقة « فإذا أبغض شيئا أبغض أهله ، وإن أبغض تلك اللغة أبغض تلك الجزيرة ، ولاتزال الحالات تنتقل به ، حتى ينسلخ من الإسلام ، إذ كانت العرب هى التى جاءت به »[٥٠] .

وقد دفعت الشعوبية الشعراء إلى المجون ، كما دفعت غير الشعراء ، وكان ذلك جزءا هاما من مخططها ، لتقويض الخلق العربى ، وزعزعة الدين الاسلامى ، وتسعى الشعوبية جاهدة إلى هدم مقومات المجتمع العربى ، وتقويض أركانه ، وقد تزعم الدعوة إليها ، شعراء كثيرون منهم بشار وأبو نواس .

وقد نتج عن تأثير اختلاط العرب بالفرس ، إزدياد الدعوة إلى تمجيد العنصر الفارسى ، والعمل على إحياء المعتقد الفارسى ، مما سهل لانتشار الأدب المكشوف ، والأدب الإباحى ، الذى ترجمه المترجمون عن الفارسية ، فأشاع الإباحية والمجون ، كما ساعد على ذلك أيضا انتشار مذاهب الغلاة من الشيعة .

وكان من أثر هذا الاختلاط غير المثمر ، انتشار الغزل المكشوف ، وانتشار الشعر الصريح العاهر ، وتغنى بعض الشعراء بآفة التعلق بالغلمان والمرد ، أمثال والبة بن الحباب وأبى نواس وغيرهما ، حتى قال أحمد أمين أن المجتمع العباسى « ورث كل ما كان فى المجتمع الساسانى الفارسى من أدوات لهو مجون »[٥١] .

ويوضح طه حسين فى حديث الأربعاء – أثر الفرس فى المجون الذى انتشر فى المجتمع العربى فى قوله « لم يعد يبتدئ القرن الثالث حتى ظهر المجون وانتشر ووصل إلى قصور الخلفاء ، ثم كانت ثورة العباسيين ، فتم انتصار الفرس على العرب ، وانتقل مركز الخلافة من الشام إلى العراق ، وأصبح الأدب عراقيا لا شاميا ولا بدويا ، أى أصبح خاضعا من كثب لتأثير الفرس وحضارة الفرس ، فتم انتصار العبث والمجون »[٥٢] .

وللخلفاء فى العصر العباسى دور واضح فى انتشار تيار المجون فى المجتمع العربى ، فقد

---

(٥٠) الجاحظ – الحيوان . الجزء السابع ص ٢٠٥ .

(٥١) أحمد أمين . ضحى الإسلام . ط . النهضة المصرية – القاهرة – الطبعة السادسة ١٦١ ص ١٩١ .

(٥٢) د. طه حسين حديث الأربعاء – جـ ٢ ص ٨١ .

أسهم البعض فى الخوض فى هذا التيار الماجن ، وفى الأخذ بنصيب من هذا العبث والمجون ، المتوفر فى مجتمعهم ، إمتدادا لنهاية العصر السابق لعصرهم ، وامتدادا لما بدأه الوليد بن يزيد .

ويختلف الخلفاء فى الأخذ بأساليب المجون ، وفى الخوض فى تياره ، فهم يختلفون بين الإعتدال فى العبث ، وبين الإسراف فيه ، كما امتنع البعض عن الإسهام فى هذا الاتجاه العابث ، وبدوا ملتزمين ، محافظين متشددين ، بل يضربون بشدة على يد الآخرين بأساليب العبث والمجون ، ومنهم الخليفة المهدى الذى يعد موقفه من أبرز العوامل التى دفعت الشعراء إلى التوبة وإلى الاقلاع عن العبث ، فقد منع الخليفة المهدى الشاعر بشار بن برد من الغزل الفاجر ، ومن القول الفاسق ، ليحمى المجتمع من الإباحية والمجون ، ويحمى المجتمع من تحريض الشاعر له على الفسق ، الذى جاء على لسانه حين دعا إلى الشعوبية ، ولم يفرق بين أمة وحرة .

أما عن الخلفاء الذين أسهموا فى انتشار المجون ، وأسرفوا فى الأخذ بأساليبه ، فمنهم ، الخليفة الأمين العباسى ، وقد زاد اللهو فى المجتمع حين ولى الأمين الخلافة ، وزاد الابتعاد عن الأخذ بأساليب الدين ، وزادت درجات الابتعاد والانحراف عن الشرائع الإسلامية .

وفى تاريخ الطبرى ، أخبار عديدة تحدد دور الأمين فى أنتشار تيار اللهو والمجون فى المجتمع العباسى ، فقد طلب الملهين ، وضمهم إليه ، وأجرى لهم الأرزاق ، ونافس فى شراء الدواب ، وفى بناء الميدان حول قصر أبى جعفر فى بغداد للصوالجة واللعب ، وبالغ فى بناء المجالس والمتنزهات ، ليكثر من أماكن الخلاعة واللهو ، التى ازدادت فى قصور الخلد والخيزرانة وبستان موسى ، وقصر المعلى ورقة كلواذى ، وقصر عبدويه ، وباب الأنبار ، وغيرهم . كما أمر بعمل الحراقات وهى سفن النزهة والاستمتاع ، لينقل المجون من البر إلى البحر ، ومن القصر إلى السفينة ، « فقد كان يمتلك حراقات خمس اتخذها على خلقة الأسد والفيل والعقاب والحية والفرس ، وأنفق عليها مالا عظيما »[٥٣] .

ويرى د.شوقى ضيف أن « لهو الأمين وعبثه وخمره ومجونه ليس شذوذا فى عصره ، بل هو امتداد لموجة حادة بدأها الوليد بن يزيد فى دمشق لآخر عصر بنى أمية ثم مطيع بن إياس ورفقاؤه من أمثال والبة بن الحباب وبشار »[٥٤] .

وفى عصر الأمين زاد اللهو نغمة بل نغمات ، فإن ميله إلى الإفراط فى اللهو والشراب والغلمان لا يسهل إنكاره ، وكان الأمين كثير اللهو واللعب ، منقطعا إلى ذلك ، مشتغلا به عن تدبير مملكته ، وكان الأمين قويا شديدا ، ويروى أنه « قتل مرة أسدا بيديه ، وله فصاحة

(٥٣) الطبرى . تاريخ الطبرى جـ ١٠ ص ٢١٥ دجلة فى الشعر العباسى للدكتور على أبو زيد .
(٥٤) د. شوقى ضيف .. العصر العباسى الأول . دار المعارف الطبعة السابعة ١٩٧٨ . ص ٦٦ .

وبلاغة وأدب ، ولكنه كان سئ التدبير ، ضعيف الرأى ، أرعن ، لا يصلح للإمارة »[٥٥] . هكذا رآه السيوطى فى تاريخه للخلفاء .

وقد ساعدت الفتنة التى وقعت بين الأمين والمأمون على انتشار اللهو والمجون فى المجتمع العباسى ، فقد بلغ تيار الحياة العابثة أقصى مداه « وتفجرت بغداد ، بعد فتنة الأمين والمأمون ، بضروب الفسق وأنواع المجون ، وقطع الطريق ، واغتصاب الغلمان والنساء »[٥٦] .

ومن الواجب الاحتراس فى تقييم عصر الأمين ، لأن ما كتب عن الأمين « أكثره مصنوع لأنه سجل فى عهد المأمون ، وروعى فيه إظهار الأمين فى صورة ماجنة خليعة ، إرضاء للخليفة القائم ، أو تبريرا لقتل الأمين ، كما تأثرت الكتابات عنه ، بنهايته وهزيمته أمام جيوش أخيه المأمون ، إلا أن هذا الذى يذكر عنه ، وإن بولغ فيه فإنه يحمل أصداء من الحقيقة »[٥٧] .

ويشترك غير الأمين من الخلفاء فى المجون ، وتختلف درجة إسهام كل منهم فى الأخذ بأساليب المجون ، وتقابلنا أخبار كثيرة ، تدور حول مجون الخلفاء ، أو مجون بعض الخلفاء فى العصر العباسى ، وهى متناثرة فى تاريخ الطبرى وفى أغانى الأصفهانى ، وفى الديارات للشابشتى ، ومروج الذهب للمسعودى ، وأيضا فى الكامل لابن الأثير ، وفى غير هذه المصادر التى اهتمت بتسجيل أخبار الحياة العباسية .

وفنون المجون عند الخلفاء تتمثل فى شرب الخمر ، والإفراط فى شربه ، وفى سماع الغناء ، واقتناء الجاريات والراقصات ، فى القصور والبساتين ومجالسة الندماء فى القصر والسفينة والبستان ، فنرى الخليفة المتوكل « يعقد فى قصوره مجالس كثيرة للمنادمة والشراب ، وكان يحب الشراب ومن حوله الورود والرياحين »[٥٨] .

والخليفة المعتز بالله العباسى « يزور الأديرة للشراب ، ويشرب فى قصوره بين ندمائه ، والمغنون يغنون بين يديه ، كما كان يشرب فى البساتين »[٥٩] .

والخليفة المعتمد العباسى ، يتفرغ للهو والشراب ، ويقول المسعودى عنه فى مروج

---

(٥٥) السيوطى (محمد محيى الدين عبدالحميد) تاريخ الخلفاء . ط المكتبة التجارية الكبرى – الطبعة الرابعة ، ١٩٦٩ . ص ١١٦ .

(٥٦) الطبرى – تاريخ الطبرى . جـ ١٠ . ص ٢٤١ .

(٥٧) د. على إبراهيم أبو زيد . الصورة الفنية فى شعر دعبل بن على الخزاعى – دار المعارف – الطبعة الثانية – ١٩٨٤ ص ٩ .

(٥٨) الشابشتى : الديارات . تحقيق : كوركيس عواد – ط . مكتبة المتنبى – بغداد الطبعة الثانية – ١٩٦٦ ص ١٦٠ .

(٥٩) د. شوقى ضيف – العصر العباسى الثانى – الطبعة الثانية ١٩٧٧ دار المعارف ص ٦٢ .

الذهب ، أنه « كان مشغوفا بالطرب ، والغالب عليه المعاقرة ومحبة أنواع اللهو والملاهى »[٦٠] .

وكان الخليفة القاهر « يدمن شرب الخمر ، وكان مولعا بالغناء والسماع »[٦١] . كذلك الخليفة الراضى ، والخليفة المستكفى ، فقد كانا يدمنان شرب الخمر ، ومعاقرتها ، ومجالسة الندماء « وقد عاهد الخليفة الراضى ربه على تركها ، ثم تحلل من عهده »[٦٢] ، « ويترك الخليفة المستكفى شرب الخمر ويعود إليها ثانية حين ولى الخلافة »[٦٣] .

لقد كانت معظم قصور الخلفاء ، فى كثير من أوقاتها مقاصف للشراب ، ومجالس للغناء والمجون ، كذلك كانت قصور الأمراء ، والوزراء وكبار أصحاب المناصب فى الدولة العباسية .

ويرى الشعراء المجتمع من حولهم ، يدعو إلى المجون فى كثير من مظاهره ، فيسهم كثيرون منهم فى الأخذ بأساليبه ، فيعرف بعضهم بالغلاميات ، مثل أبى نواس ومن قبله والبه بن الحباب ، ومنهم من يعرف بالشعوبية ، أو يعرف بالزندقة مثل بشار بن برد ، وأبو يعقوب الخريمى ، ويقتل منهم كثيرون ، بأمر الخليفة المهدى بعد أن أعد ديوانا خاصا للزنادقة ، يتعقبهم ، ويحاكمهم ، ويقاتلهم ، ويقتلهم ، مثل صالح بن عبدالقدوس وبشار وابن أبى العوجاء ، وحماد عجرد ، وكان الهادى والمأمون يقفان للزنادقة والملحدين بالمرصاد .

وتحولت بعض ديار الشعراء – هى الأخرى – إلى مجالس للمجون ، فيدعو أحدهم مجموعة من الشعراء للشراب والاستماع فى داره ، على نحو ما كان شائعا فى دار مطيع بن إياس فى الكوفة ، ودار بشار بن برد فى البصرة ، ودار أبى نواس فى بغداد ، بالاضافة إلى تلك المجالس التى سجل بعضها الشاعر دعبل بن الخزاعى فى بعض أشعاره ، مصورا ما كان يدور فى مثل هذه المجالس من عبث وإباحية .

وكان أهل الكوفة ، من أعلم الناس بالشعر ، يعقدون له المجالس ، يحضرها الشعراء ، وشهدت تلك المجالس لقاءات المجان من الشعراء الذين أكبوا على ملذاتهم ، « وكانت تلك النقائض والمعارضات التى تجرى بين المجان تمثل أقصى أنواع التهتك »[٦٤] .

---

(٦٠) المسعودى – ومروج الذهب ومعادن الجوهر – جـ ٤ ص ١٣١ .

(٦١) ابن تغرى بردى – النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة – نشر وزارة الثقافة والارشاد – المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة . جـ ٣ . ص ٢٤٥ .

(٦٢) ابن الأثير – (عز الدين أبى الحسن على) – الكامل فى التاريخ – دار صادر – بيروت – ١٩٦٥ جـ ٨ ص ٢٠٤ .

(٦٣) المسعودى – مروج الذهب – جـ ٤ . ص ٢٦٧ .

(٦٤) د. عبدالكريم الأشتر – دعبل بن على شاعر آل البيت . ط بيروت – ص ٤٧ .

ويروى ابن المعتز بعض أخبار هذه المجالس ، التى كان يعقدها الشعراء فى ديارهم ، فيقول ابن المعتز فى طبقاته « مسلم بن الوليد صريع الغوانى ، وأبو نواس وأبو الشيص ، ودعبل بن على بن رزين ، فى مجلس على الشراب ، فقالوا : لينشد كل واحد منكم أجود ما قال .. »[٦٥] .

وكان لهذه المجالس ، التى يعقدها الشعراء فى دورهم ، عظيم الأثر فى إثراء حركة النقد الأدبى وفى نظم الشعر ، وفى هذه المجالس نظمت أحلى أقوال الشعراء ، وأبلغ آرائهم النقدية ، فقد كانت أشبه بالندوات الأدبية ، وإن كان المجون وفنونه ينتشر فى هذه المجالس .

وكانت هذه المجالس تأخذ صورا مصغرة - أحيانا - حين تدور بين شاعر وزميل له ، أو تدور بين شاعر وجارية شاعرة أو أديبة ، مثلما كان بين عنان جارية الناطفى مع أبى نواس ، ليؤكد ذلك كله الدور الخطير ، الذى كانت تؤديه الجوارى فى المجتمع العباسى ، فى إشاعة أسباب اللهو والمجون ، وفى حث الشعراء على الإسهام فيه ، وعلى النظم فى فنونه ، لمجاراتهن ، أو لوصف أطوار حالاتهم معهن .

فقد كثر الرقيق فى هذا العصر كثرة بالغة ، وامتلأت به القصور ، وكان لذلك أثر كبير فى الحياة الاجتماعية العباسية « فكثر نسل الجوارى ، واختلطت الدماء حتى الخلفاء أنفسهم ، كان بعضهم فى هذا العصر من نسل الجوارى »[٦٦] .

وترجع بعض أشعار المجان إلى الشاعر نفسه ، فى محاولة للتخلص من حزنه ، أو هروبا من الحياة الجادة ، والتهرب من أعبائها الثقيلة ، ففسدت بعض القيم واختلطت الموازين ، فنرى الرقاشى يدعو فى أرجوزة طويلة له إلى اللواط ، وشرب الخمر .

وفى المؤتلف والمختلف يروى أن « ابن خزام الأسدى ، كان ينزل الكوفة فى أوائل القرن الثانى الهجرى ، وكانت له زوجة من أهل الرى أسمها دختكا ، ويبدو أن الصلة بينهما كانت صلة شاذة وغريبة ، فكان يكتب أشعارا كثيرة ، إباحية ، يصف فيها علاقته غير الطبيعية مع زوجته »[٦٧] .

---

(٦٥) ابن المعتز - طبقات الشعراء المحدثين . ت : عبدالستار فراج - ط . دار المعارف - الطبعة الثالثة . ص ٧٢ .

(٦٦) أحمد أمين . ظهر الاسلام . النهضة المصرية - القاهرة - ص ١٢١ .

(٦٧) الآمدى . المؤتلف والمختلف ص ٩ .

الـزهـــد

إن طبيعة الحياة التى عاشها المجتمع العربى فى العصر العباسى ، فى كثير من جوانبها ، من ترف ومجون وتمتع ، تعد من أهم أسباب انتشار المجون وفى الوقت ذاته ، تعد – أيضا – من أبرز العوامل التى أدت إلى ازدهار تيار الزهد والتصوف ، وإلى الاكثار من التوبة والاستغفار فى المجتمع العباسى .

ولم يكن المجون صفة عامة ، للمجتمع كله ، ينسحب على جميع طبقاته ، وجميع أفراده ، بل كان مقصورا على فئات خاصة ، وعلى طبقات بعينها ، يسهم فيه أفراد ، دفعوا إلى ذلك بفعل متغيرات إجتماعية ومؤثرات ذاتية ، فلم يكن المجتمع كله ، يحيا فى ترف وفى رفاهية ، ولم يكن المجتمع كله يعيش فى خمر وغناء ورقص ، بل كانت الحياة تجمع بين الترف الذى لا حد له ، وبين الفقر الذى لا حد له أيضا .

ولعل مجتمعا غريبا لم يعرف هذا التناقض مثلما عرف المجتمع العباسى ، ويعد الزهد تيارا طبيعيا ، واتجاها مُضَادًا ، لتيار اللهو واتجاه المجون ، « فقد ظهر الزهد انتكاسا لتيار اللهو والعبث ، وتأييدا للجانب الجاد فى الحياة الاجتماعية ، وتوكيدا لتيار الزهد الذى كان انعكاسا صادقا فى نفوس من نفروا من الحياة العابثة الماجنة التى تسود المجتمع »[٦٨] .

ومن الطبيعى أن يقوى تيار الزهد ويشتد ، كلما أغرق المجتمع فى المجون ، فقد كان البذخ والترف والنساء من الجوارى والخمر والساقيات ، من أبرز الأسباب للثورة الاجتماعية ، والثورة على الذات .

وقد شاع فى المجتمع العباسى طبقة لم تكن معروفة من قبل ، طبقة الوعاظ والنساك والقصاص ، وانتشروا فى مساجد بغداد وفى حلقاتها ، يدعون إلى الزهد ، وإلى العبادة ، وإلى التقشف ، وإلى القناعة عما فى الحياة من متع .

وأكتظت المساجد فى البصرة والكوفة ، وفى سامراء وبغداد ، بالعباد والنساك ، يعظون الناس ويذكرونهم بالآخرة ، مما ساعد على إزدهار حركة الزهد ، ثم حركة التصوف على يد إبراهيم بن أدهم ومعروف الكرخى .

وفى البيان والتبيين للجاحظ ، وعيون الأخبار لابن قتيبة ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ، أخبار كثيرة عن الوعظ والوعاظ ، والزهد والزهاد ..

ويعلل أحمد أمين انتشار تيار الزهد فى المجتمع العباسى ، بانتشار الفقر بين طبقات العامة

---

(٦٨) د. محمد مصطفى هدارة – اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى . ص ٨٤ .

« فقد كان من أثر هذا الفقر انتشار نزعة التصوف ، فالفشل فى الحياة قد يسلم صاحبه إلى الزهد ، واقناع النفس بأن نعيم الدنيا زائل ، وإذا حرم الدنيا فليطلب الآخرة ، كما كان من آثاره انتشار الدجل والتخريف ، وتعلق الناس بالأساليب الوهمية فى الحصول على الغنى لعجزهم عن تحصيله بالوسائل المعقولة ، من تنجيم واعتقاد فى الطوالع التى تسعد وتشقى ، وانصراف إلى الكيمياء التى تقلب النحاس والقصدير ذهبا ، والالتجاء إلى دعوات الأولياء لعل دعوتهم تتحقق ، فينقلب فقرهم غنى ، والاعتقاد فى السحر والطلسمات »[٦٩] .

ويرى د. شوقى ضيف أن ألحان الزهد ، لم تكن تقل عن ألحان المجون ، إن لم تزد عليها ، ويعلل ذلك بأن المجون كان يذاع وينتشر على ألسنة الجوارى والمغنين ، ويتردد فى كل مكان »[٧٠] .

ويرى ابن عربى أن الزهد علم عملى وفن لعبادة الله ، ومنهج فى الحياة ، والزهد انتشر فى كثير من الأمم والأجيال القديمة ، وقد أخذ به كثير من المسلمين فى صدر الإسلام ، متمثلين بأقوال الرسول ﷺ ، عن الزهد فى الدنيا ، والزهد فيما أيدى الناس من أجل حب الله ، وحب الناس .

لقد كان الزهد عند المسلمين الأوائل قيمة من قيم الإسلام الخالص ، ومن الزهاد كبار الصحابة ، والتابعين ، أمثال أبى ذر وعبدالله بن عمر ، وعبدالله بن عباس ، وعمر بن عبدالعزيز ، الذى قال عنه مالك بن دينار « الناس تقول مالك بن دينار زاهدا ، إنما الزاهد عمر بن عبدالعزيز الذى أتته الدنيا فتركها »[٧١] .

ولعل أشهر شخصية ظهرت فى القرن الأولى الهجرى فى الزهد الحسن البصرى ، ومن زهاد القرن الثانى - أيضا - عبدالواحد بن زيد الذى كان يقول : « يا معشر إخوانى عليكم بالخبز والملح فإنه يذيب شحم الكلى ويزيد فى اليقين »[٧٢] وكان الفضيل بن عياض يرفض عطاء الرشيد ، ويردد (اللهم زهدنا فى الدنيا)[٧٣] .

أما وهيب بن الورد فكان لا يأكل الفواكه ، ويكشف عن بطنه ويقول « يا وهيب ما أرى بك بأسا ، ما أرى تركك الفواكه قد ضرك شيئا »[٧٤] ويقول بشر بن الحارث الحافى « إن

---

(٦٩) أحمد أمين - ظهر الإسلام ص ١٢١ .

(٧٠) د. شوقى ضيف . الفن ومذاهبه فى الشعر العربى - دار المعارف - التاسعة (١٩٧٧) - ص ١٠٠ .

(٧١) أبى نعيم - حلية الأولياء . جـ ٥ . ص ٣٣١ .

(٧٢) أبى نعيم - حلية الأولياء . جـ ٦ . ص ١٥٥ .

(٧٣) أبى نعيم - حلية الأولياء - ٨ / ٨٤ .

(٧٤) ابن الجوزى - صفة الصفوة - ٢ / ١٢٥ .

الجوع يصفى الفؤاد ، ويورث العلم الدقيق ، طوبى لمن ترك شهوة حاضره لموعد غيب لم يره »[٧٥] .

قد شهد القرن الثانى حركة الزهد وهى تنمو وتشتد ، ومنه ومن حلقاته نشأت الصوفيه ، واتخذوا من الزهد شعارا لهم ، « والصوفية من جملة الزهاد »[٧٦] ولا يقبل من الصوفى أن يملك شيئا ، حتى لا يشغل بمتاع الدنيا عن عبادة الله وطاعته ، والإمتثال لأوامره .

وقد تجردوا من حب الدنيا ، ومن التعلق بها ، ومنهم : أبو سليمان بن داود بن نصر سنة ١٦٥ هـ ، ورابعة العدوية سنة ١٨٥ هـ ، ومعروف الكرخى سنة ٢٠٠ هـ الذى كان يقول « لو كان من حب الدنيا ذرة واحدة فى قلوب العارفين ما صحت لهم سجدة واحدة »[٧٧] .

والزهد فى طبيعته عزوف عن الدنيا ومتاعها ، وهجر لذائذها وترفها ، إنه حركة تقشف وانصراف عن الحياة ، ودعوة إلى التمسك بالصالح من الأعمال ، وأداء الفرائض ، واقناع الذات أن الفناء مصير كل شيء ، فليس أمام الإنسان إلا زاد التقوى .

وكان الزهد فى أوله حركة إسلامية خالصة ، لا تأثير للفلسفات أو الثقافات الأجنبية فيه ، ولا تأثير لزهد الأديان الأخرى والأمم القديمة فى طبيعته ، وإن أدى اختلاط العرب بغيرهم من أبناء البلاد المفتوحة - بعد ذلك - إلى تسرب مبادئ من زهد الأديان الأخرى إلى الزهد الإسلامى ، ولاسيما زهد المسيحية التى كانت منتشرة فى العراق والشام ، ومصر .

وبالغ الزهد فى التقشف والتعبد « حتى أطلق على بعضهم الراهب أو القس كما حدث فى عهد عثمان »[٧٨] ومنهم من حرم على نفسه الزواج ، ومنهم من كان يحج إلى مكة مشيا على الأقدام ، ومن يصلى ألف ركعة فى اليوم الواحد .

لقد بلغ الزهد ، إلى حد عظيم عند بعض الزهاد ، وصار لونا من ألوان المشقة ، وتعذيب النفس ، وإيقاع الضرر بها ، حين يهيم الزاهد على وجهه خوفا من العقاب ، وحين يربط نفسه على أعمدة مسجد المدينة ، إلى آخر تلك الأخبار التى رويت عن المبالغين فى زهدهم ، وورد ذكر بعضها فى مصادر عديدة منها حلية الأولياء وصفة الصفوة .

وتعد العراق من أكثر المناطق زهدا ، لظروفه السياسية والاجتماعية ، ولكثرة ما أصابه من فتن وحروب داخلية ، ونتيجة لما عاناه من قسوة الولاة ، وشدة الحكام ، وتعسف معظمهم ، وكثرة انتشار الإباحية والمجون .

إن الأسباب غير الدينية لا تقل أثرا عن الأسباب التى تتعلق بالدين والعقيدة ، فى انتشار

---

(٧٥) ابن الجوزى - صفة الصفوة - ٢ / ١٨٨ .

(٧٦) ابن الجوزى - تلبيس إبليس . مصر - ١٩٢٨ . ص ١٧ .

(٧٧) حلية الأولياء - ٥ / ٣٣١ .

(٧٨) د. عبدالعزيز عتيق - الأدب العربى فى الأندلس - دار النهضة العربية - بيروت . ص ٢١٦ .

تيار الزهد ، فإذا كان الزهد قد انتشر فى بعض مجالاته ، وبين بعض أفراده عن فكر وفلسفة ، وحوار وجدل ومناظرة ، وإيمان به ، ومحاولة تقرب إلى الله وتنسك ، فإنه نما وازدهر لأسباب أخرى اجتماعية وسياسية ونفسية ، حتى كاد يصبح موجة شبه عامة ، تعم الكثير من طبقات المجتمع العريضة .

لقد كان لفساد الأحوال السياسية ، وتدخل النساء فى إدارة حكم البلاد وسيطرتهم على أمور الخلافة ، وسلوك الخلفاء ، وسيطرة غير العرب على مناصب قيادية عديدة فى المجتمع العباسى ، فى الإدارة وفى الحكم وفى الجيش ، فضلا عن امتزاج العناصر الهدامة خلقيا وفكريا وعقائديا بين أفراد المجتمع العباسى ، كل ذلك كان له أبلغ الأثر الفعال والمباشر فى أن ينصرف الكثيرون عن الحياة ومتاعها ، وإلى هجرة لذائذها ، واعتناق الزهد .

ويمكن أن يعزى الزهد أو التصوف - فى بعض درجاته - إلى انتشار روح اليأس ، التى أصابت بعض الأفراد ، اليأس من الصلاح ، واليأس من الإصلاح ، والخوف من المجاهرة بالآثام الفادحة ، فى كثير من مناحى الحياة فى المجتمع العربى فى العصر العباسى ، كذلك الشعور بالظلم ، والإحساس باضطراب القيم ، واختلال موازين الحياة ، فقد تولى المناصب غير أهلها . فهبط الرفيع ، وارتفع الوضيع ، وفشت السعايات ، وعمت الوشايات ، وزادت موجة الإضطراب والفوضى والفتن درجات ودرجات ، فلجأ من لم يكن بيدهم أمرا ، أو قدرة على التغيير أو المواجهة إلى التنسك ، وإلى البعد عن الحياة وفتنها ، كما أقبل غيرهم على الإكثار من الأخذ بمتع الحياة بنصيب أوفر .

وقد يكون لسوء الأحوال سبب فى المجون ، وقد يكون لسوء الأحوال سبب أيضا فى الإقلاع عن المجون ، كما أن الإفراط فى المجون ، كان عاملا مباشرا فى خلق التيار المضاد ، تيار النسك والزهد والتوبة والاستغفار ، والرجوع إلى الدين والتمسك بالحق والدعوة له ..

إن حركة الزهد فى القرن الثانى الهجرى « لم تكن متصلة بدوافع دينية فحسب ولكنها كانت نتيجة دوافع مختلفة ، تحث على وجودها إلى جانب الدوافع الدينية »[٧٩] .

ومن الأمور التى يهتم البحث بها - هو توضيح ذلك الجانب المتطور عند الشعراء العباسيين ، جانب الانتقال من المجون إلى الزهد فيه ، ومن المجاهرة بالآثام إلى التوبة والاستغفار . وقد مثل هذا الاتجاه بعض الشعراء الذين عرفوا بالمجون ، وبالإسراف فيه ، وبالدعوة إليه ، ثم أقبلوا على الزهد وسعوا إليه ، وتابوا عن آثامهم ، واستغفروا ربهم أمثال أبى العتاهية ، وأبى نواس ، وغيرهما .

وهذه ليست قاعدة سائدة ، فلقد ظلت طائفة من الشعراء المجان ، لا تقلع عن معاصيها ،

---

(٧٩) د. محمد مصطفى هدارة - اتجاهات الشعر العربى ص ٢٨٥ .

ولم تعلن التوبة ولو لفظا ، ولم يحاولوا أن يتوبوا ، وماتوا وهم غرقى فى المجون وآثامه ، وكان هناك شعراء زهاد لم يعرفوا المجون .

ومن المؤكد أن بواعث الزهد والتوبة التى انتشرت فى المجتمع العباسى ، كانت تختلف ، وتتنوع حسب الأشخاص وطباتعهم وأمزجتهم وظروفهم ، وحسب موقعهم من الحياة ومن الناس ، وحسب ما نزل بهم من محن وكوارث ، لقد صدر الزهد فى أول أمره عن علماء أتقياء ، وزهاد عباد ، عرفوا حقيقة الحياة ، وشهد لهم بالصدق والورع ، ويرى بروكلمان أن « الزهد نشأ تحت ضغط المشاكل السياسية والاجتماعية للقرنين الأولين للهجرة ، وهو يختلف عن التقوى الدينية التقليدية التى عرفها قدامى المسلمين ، وهو اتجاه فكرى ، كان يبحث عن طريق دراسة عميقة للقرآن عن علاقة بالله ، ويريد أن يحكم على الأشياء فى هذا الكون وفقا لذلك »[٨٠] .

والزهد فى مصدره الأول إسلامى بحت ، ثم تطور نتيجة للاضطراب الفكرى والاجتماعى والسياسى الذى عم المجتمع ، وربما تأثر بعد ذلك بالاتجاهات الفكرية الأجنبية ، وبالثقافات غير العربية ، وبالفلسفة غير الإسلامية ، حتى أصبح تيارا له أصول وعناصر ، فقد أضحى الزهد فى القرن الثانى الهجرى « مذهبا له خصائص معينة ، وله أصول وعناصر يرتكز عليها ، وليس مجرد ميل فطرى إلى الزهادة وتقوى الله ، أو حالة من حالات الإيمان »[٨١] .

لم يكن الزهد شعورا عرضيا ، أو حالة طارئة ، بل أضحى فكرة عميقة ، ورؤية واضحة ، وكان لظهور الدولة العباسية التى تعتمد على أصل دينى فى فكرتها الأولى ، أثر كبير فى انتعاش الحركة المذهبية ، وظهور العقائد والنحل « وقد كان الخلفاء العباسيون يناظرون العلويين فى قرابتهم للرسول ﷺ ، ويرون أن قرابتهم للرسول ﷺ أحق وأوثق ، والمأمون أكثر الخلفاء استعدادا لمثل هذه المناظرات ، لحبه للعلم والعلماء ، وحبه للفلسفة والمناظرات »[٨٢] .

وقد زادت الآمال الدينية عند المتعصبين لها فى حكم بنى العباس ، خاصة عند المخضرمين ، الذين عاصروا زوال الدولة الأموية ، وتمنوا التغيير ، « ولكن ما تلبث الآمال فى بنى العباس أن تتبدد ، وأن يظهر الجفاء بين آل عباس وآل على ، وليس أبلغ من ذلك العداء الذى فصل بين العباسيين والعلويين من تلك الرسائل المتبادلة بين الخليفة المنصور العباسى ، ومحمد بن عبدالله بن الحسين العلوى ، حين خرج بالمدينة ، وقد جمع الطبرى هذه الرسائل فى تاريخه[٨٣] .

---

(٨٠) بروكلمان - تاريخ الأدب العربى - جـ ٢ ص ٥٤ .

(٨١) د. هدارة - اتجاهات الشعر العربى - ص ٢٨٤ .

(٨٢) د. على أبو زيد - الرؤية الفكرية والتشكيل الجمالى فى شعر السيد الحميرى - دار المعارف الطبعة الأولى (١٩٨٤) ص ٥٩ .

(٨٣) تاريخ الطبرى - الجزء التاسع .

وبجانب هذه الآمال الضائعة فى إعادة الدين إلى مساره الأول ، كانت الأحزاب السياسية والفرق الدينية ، واختلاف أصول الدعوة وعناصرها وانتشار الأفكار وتعصب كل أصحاب فرقة لمبادئهم ، وكل أنصار حزب لما ينادى به ، وكان من نتيجة ذلك أيضا البحث عن الزهد ، والتعلق به ، واتخاذه مذهبا ، ومنهجا فى الحياة ، بعد أن زاد فيها الصراع والتصارع .

إن التطور الاجتماعى ، لا يقل أثرا عن التطور السياسى والمذهبى ، فى انتشار تيار الزهد ، وتطوره وشيوعه ، فقد أحدثت الهوة الواسعة بين الطبقات فى المجتمع العباسى رغبة قوية فى الانصراف عن الدنيا ومتاعها ، والإقبال على التوبة ، وإظهار النسك ، وقد أصل هذا الاتجاه ، وعمق هذه الدعوة ، طائفة القصاص والوعاظ ، الذين كانوا يقصون على الناس فى المساجد أساطير الأولين ، ويعظونهم بسير الأولياء الصالحين ، فقد امتلأت مساجد بغداد بالعباد والنساك ، وامتلأت بأهل الصلاح والتقوى ، وأصبح كل ركن من أركانها واعظ ، أو قاص ، يعظ الناس بالعبرة والقصة .

وغاية حياة النساك « حياة زهد خالصة كلها تبتل وعبادة وتقشف وانقباض عن الاستمتاع بالحياة أو ملذاتها ، وانصراف عن كل نعيم ، انتظارا لما عندالله »[٨٤] وقد انتشر الزهد فى العراق ، وانتشر فى القرنين الأول والثانى الهجريين ، وعرف من رجاله الحسن البصرى فى القرن الأول الهجرى ، وهو مؤسس مدرسة البصرة فى الزهد والتصوف ، ومن زهاد القرن الثانى الهجرى إبراهيم بن أدهم البلخى ، وعبدالواحد بن زيد ، وصالح بن بشير المرى ، ورياح بن عمرو القيسى ، وسفيان الثورى ، ويذكر ابن الجوزى فى حلية الأولياء مئات من هؤلاء الزهاد[٨٥] .

وقد تطور هذا الاتجاه من الزهد إلى التصوف ، ويرى بروكلمان « أن الزهد تطور فى الإسلام حسب القوانين نفسها ، التى هيمنت على تطوره فى الأديان الأخرى ، ووجوه الشبه التى وجدت نتيجة ذلك دعت باحثين متقدمين ، إلى الظن أن ذلك الاتجاه اعتمد اعتمادا مباشرا على حضارات أجنبية ، ومنهم فون كريمر الذى أراد إرجاع التصوف الإسلامى إلى البوذية أساسا ، وعلى الضد منه أثبت نيكلسون أن التصوف مصدره إسلامى خالص ، فقد سمى أوائل الزهاد أنفسهم بالصوفية ، وربما كان ذلك فى الكوفة أولاً ، « لأنهم كانوا يظهرون زهدهم فى الحياة ، بارتداء لباس أبيض من الصوف ، وكان منهم الحسن البصرى ، ويمكن اعتبار أبى العتاهية ممن يمثلونهم ، ولم يكن من الممكن فى هذه البيئة المشبعة بالحضارة الهيلينية أن ينأى التصوف تماما عن التأثيرات الأجنبية ، ومن أقدم رواد التصوف الذين ضربوا مثالا لحياة

---

(٨٤) د. شوقى ضيف - العصر العباسى الأول ص ٨٥ .

(٨٥) ابن الجوزى - حلية الأولياء جـ ٦ ص ٣٣٨ .

الزهد ، بهلول المجنون الكوفى الذى يقال أنه عمل واعظا فى بلاط هارون الرشيد »[٨٦] .

ويخلط بعض الدارسين بين الزهد والتصوف ، وبين الزهاد والمتصوفين ، لوجود ارتباط بينهما فى الدعوة إلى الاقلاع عن متاع الدنيا ، وتوافر التوبة والاستغفار ، كما اختلفت الآراء حول مصدرهما الإسلامى أو غير الإسلامى ، تأثرا بالثقافات الأجنبية .

والزهد أساس التصوف ، وقد ازدهر تياره وانتشر حتى تطور إلى تصوف ، وربما كان كل تصوف أساسه زهد حقيقى ، أو أن الزهد درجة حتمية من درجات التصوف ، وسمة من سماته الغالبة ، ومن غير الحتمى أن يكون الزهاد متصوفين ، وأما عن تأثر الزهد بغير الاسلام من دعاوى وثقافات ، فقد شهد المجتمع العباسى ذلك ، وقد سجل د. شوقى ضيف هذا فى قوله : « أن العصر العباسى الأولى شهد لونين من الزهد : زهدا اسلاميا خالصا أعد للنسك والتصوف ، وزهدا مانويا مارقا »[٨٧] .

ويذكر الجاحظ فى الحيوان أن الدولة كانت « تقاوم هذا الزهد المانوى وتقاوم أصحابه ، وكان من تمام النسك فى هذا الزهد المارق المنحرف أن يعيش الناسك على سفر إلى الناس »[٨٨] .

والزهد الإسلامى يختلف عن الزهد المسيحى فى جوهره « إذ الزهد عند المسيحيين ورهبانهم يقوم على أساس من فكرة الخطيئة ، والإسلام لايقر هذه الفكرة »[٨٩] .

وإن زهد المجان – موضوع البحث – لا يعنيه بحث التصوف أو المتصوفين ، ولا يعنيه الزهد غير الاسلامى المصدر ، أو المتصوفين ، ولا يعنيه الزهد غير الاسلامى المصدر ، أو القائم على فلسفات مركبة أو نظريات متطورة ، ولكنه يأخذ الزهد فى أبسط صوره ، وأول درجاته ، وأخف معانيه ، وهو ترك المعصية ، والإقلاع عن المجون ، أو عن النظم فيه ، والرجوع إلى الله ، أو إعلان ذلك ، والإيمان بالقدر خيره وشر ، وكثرة الاستغفار والتلبية ، والخوف من عذاب الله والعمل على مرضاته ، وتصوير ذلك كله فى أشعار الشعراء .

إن مرارة الندم التى ألحت على كثير من شعراء المجون هى التى دفعتهم إلى نظم شعر فى الزهد أو فى التوبة والاستغفار ، ولم يكن الشعراء المجان أصحاب نظريات فلسفية ، أو مذاهب معينة ، تدخل بهم فى إطار المفكرين أو الفلاسفة أو أصحاب الكلام أو الصوفية ، ولكن زهدهم أبسط من هذا كله ، إنما هو رجوع عن الكلمة الفاجرة ، والتوسل بالعفيف من الألفاظ والصالح من الأعمال ، والطيب من السلوك .

---

(٨٦) بروكلمان . تاريخ الأدب العربى جـ ٤ ص ٧٤ .
(٨٧) د. شوقى ضيف – العصر العباسى الأول ص ٧٤ .
(٨٨) الجاحظ – الحيوان – جـ ٤ . ص ٤٥٦ .
(٨٩) د. شوقى ضيف – العصر العباسى الأول ص ٨٦ .

وقد ألمت بشعراء المجون – حتى فى غمرة عصيانهم – ومضات إيمانية طارئة ، لم تلبث أن تزول ، وإن استمرت عند البعض – بعد أن ذاق حلاوة الإيمان ، وحلاوة الإقلاع عن المعاصى ، فاندفعوا إلى الزهد وإلى الحكمة وإلى التوبة .

إن الزهد الذى يعنى البحث به ، قد لايقصد به السلوك العملى ، أو التطبيقى ، إنما يعنى به التكفير والتوبة ، والبعد عن المعصية ، وقد اختلفت البواعث إلى هذه التوبة عند الشعراء ، كما اختلفت مظاهرها ، كما سيتضح ذلك فى مكانه من هذه الدراسة . فإن العوامل التى دفعت أبا العتاهية إلى التوبة ، تختلف عن الدوافع التى حدت بأبى نوّاس إلى التوبة والإقلاع عن المجون .

ويختلف الدارسون حول تسمية هذه النزعة ، التى أصابت المجان من الشعراء ، هل هى زهد ؟ أم توبة ؟ وإن غلب اسم الزهد على معظم الدراسات التى عنيت ببحث هذا الجانب عند بعض الشعراء المجان مثل زهديات أبى نواس ، أو زهديات أبى العتاهية .

ونرى فى بعض دواوين هؤلاء الشعراء بابا خاصا يسمى باب الزهد ، يضع جامع الأشعار شعر الشاعر فى التوبة والحكمة والاستغفار تحت هذا الباب .

فقد ظهر من الشعراء جماعة اتخذت الزهد مذهبا لها فى الحياة ، ودعت إليه ، ونعت على الناس والخلفاء إغراقهم فى الانصراف إلى الدنيا وإلى المال ، ومنهم الشاعر أبو العتاهية الشاعر العباسى الزاهد ، بل إن أبا نواس أصبح زاهداً بين يوم وليلة »[٩٠] .

ولم يكن أبو نواس زاهدا فى يوم وليلة ، كما يرى د. خفاجى ، ولم يكن كذلك أبو العتاهية ، ولكن البواعث التى انفجرت فى ضمائرهم ودفعتهم إلى أن يسلكا طريق التوبة ، ويقلعا عن الإثم والمعصية ، ظلت مدة ليست بالقصيرة ، ومن هؤلاء الشعراء الزهاد فى العصر العباسى كلثوم بن عمرو العتابى ٢٢٠ هـ ، ومحمد بن حازم الباهلى ، ومحمد بن حسن الوراق ٢٣٠ هـ .

وسواء كان الزهد عند الشعراء المجان سلوكا وعملا ، أو دعوة وقِنَاعًا فإن الدراسة تهتم بدراسة المبررات التى دفعت بالمشهورين من الشعراء المجان إلى التوبة والاستغفار ، ليوضح البحث هل دفع الشاعر إلى ذلك بدافع ذاتى وبرغبته المحضه ، وبإرادته الصادقة ، وإيمانه الثابت ، أو كان الشاعر مدفوعا إلى إعلان توبته ، وبعد أن يعبر عنها ، يعود إلى مجونه مرة أخرى ، وسوف يعنى البحث أيضا بمعرفة هل هذا الموروث الذى خلفه لنا المجان بعد توبتهم يعبر عن زهد حقيقى وعن نزعة صادقة فى التقرب إلى الله ، أم هو اتجاه مخلص لا يشمل غير

---

(٩٠) د. عبدالمنعم خفاجى – الأدب فى التراث الصوفى – ص ١٩٥ .

التوبة والاستغفار فقط ؟ وهل جاء على هيئة ومضة طارئة ، أو لمحة بارقة ، لم تلبث أن تنقشع أو تزول ، حين تذهب الدوافع ، وتزول البواعث ؟ .

إن محاولة استعراض النصوص الشعرية التى قالها المجان فى باب الزهد أو التوبة والاستغفار ، واستقراء هذه النصوص ، يحدد لنا معالم الدوافع ، والبواعث التى دفعت المجان إلى أن يزهدوا ، أو إلى أن يتوبوا ، ودراسة النصوص مرة أخرى ، لتحديد عناصر الزهد ، والوقوف على عناصر شعر التوبة والاستغفار ، ودراسة المصادر والمضامين ، والأفكار التى غلبت على شاعر معين بعد أن أقلع عن مجونه .

ودراسة بواعث الزهد والتوبة عند الشعراء المجان ، ودراسة مضامين الزهد أو التوبة عند الشعراء المجان ، ثم تقييم هذا الشعر فنيا وجماليا من موضوعات الدراسة فى الفصول التالية .